الجنـرال

خالد بن الوليد

رضي الله عنه

تسطع الحقيقة أمام أعيننا كثيرا ، ولكننا
لا نراها إلا قليلا

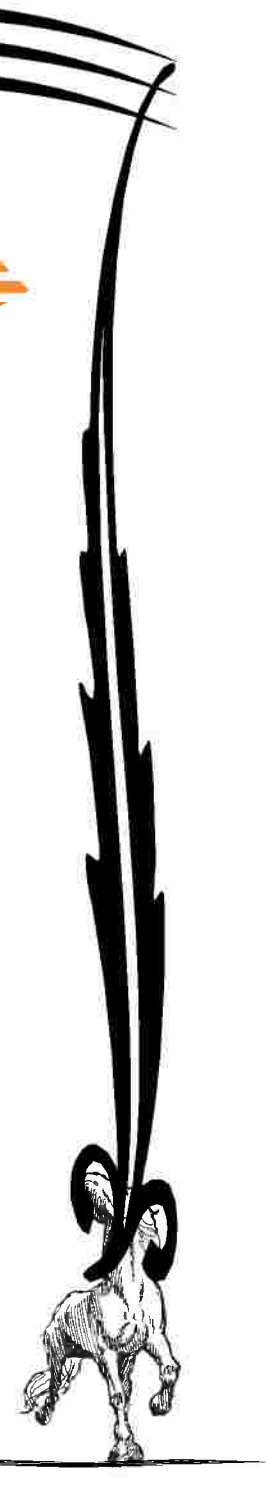

« إنهم ينتصرون ».

همس بها خالد بن الوليد القائد العسكري المخضرم لنفسه، وهو يقف مع الآلاف من أهل مكة الذين ينظرون إلى المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة في عمرة القضاء، في السنة السابعة للهجرة.

ثم تابع وهو يفكر بعمق:

«الآن يصل المسلمون إلى مكة، فيدخلونها مدة ثلاث أيام بكامل حريتهم دون أن يعترضهم أحد، ولن يستطيع أن يعترضهم أحد..

الآن لن تفلح محاولات « أبي سفيان » وغيره في تشويه صورة محمد والمسلمين أمام العرب..

محاولات يائسة بإطلاق شائعة أن المسلمين بهم مرض جلدي حتى يمتنع الناس من الاقتراب منهم..انتهى الوقت يا أبا سفيان..وانتهت المعركة منذ عام، بعد صلح الحديبية..

وهذا الطواف لن يكون آخر طواف..».

ثلاثة أيام.. وخالد يفكر في تاريخ طويل من الصراع مع محمد..

ثلاثة أيام.. وخالد يفكر فيما فعل بالمسلمين، وفيما فعل المسلمون بقريش..

وأخذ يتابع في تأمل:

« المسلمون يقتربون جدا من تحقيق حلمهم..

ومحمد الذي أشاعت عنه قريش الجنون، يبهر الجميع بذكائه ودهائه السياسي، الجميع يتعلقون به.. ويصرون معه على استكمال الطريق رغم كل ما رأوه من أهوال..

في كل مرة كنت أحاربه فيها، أعلم أنه سينتصر..

محمد ليس رجلا عاديا..

أبدا..ليس رجلا عاديا..وسينتصر أكثر وأكثر.. » و..

«إنه يسأل عنك يا خالد».

انتبه خالد فجأة عندما دخل إليه أخوه الوليد، وقد بدا أنه في حالة شرود غريب وهو يتساءل:

- سأل عني... من سأل عني؟

اقترب منه أخوه الوليد وهو يبتسم ويربت على كتفيه في حنان قائلا:

« رسول الله ».

تألقت عينا خالد وهب واقفا وهو يقول في دهشة:

- سأل عني أنا ؟!

لاحقه الوليد قائلا:

سألني عنك فقال لي:

« أين هو ؟ ».

فقلت له:

يأتي به الله.

فقال:

« ما مثل خالد يجهل الإسلام ».

لقد أيقن خالد أن الرسول ﷺ يحترمه ويقدره..كما يحترمه هو ويقدره.

فلقد كان الإعجاب بينهما متبادلا..

وكان هذا الإعجاب المتبادل كفيلا بأن يقرب المسافات بينهما، حتى وإن كانت تلك المسافة بين مكة والمدينة..

لقد شغل الأمر « خالدا » وملك عليه جوارحه، حتى أتاه في المنام أنه يخرج من أرض ضيقة إلى أرض خضراء واسعة..

ولم يكن الأمر يحتاج إلى مزيد من التفكير...

كان يحتاج فقط إلى قرار..

لقد قرر خالد اعتناق الإسلام....

تأخر القرار كثيرا يا خالد.. لكن لا بأس..المهم أنه جاء...

وفي الصباح.. عزم خالد على الرحلة إلى المدينة..

إلا أن عزيمة خالد على الأمر، لم ترض بأن يذهب إلى المدينة وحيدا.. فقرر أن يأخذ معه من يذهب إلى رسول الله ﷺ مسلما..

وحاول خالد..

وكانت أولى محاولاته مع صفوان بن أمية، والذي ما إن لمحه خالد في طريقه حتى هتف بحماس:

- يا صفوان..أتخرج معي إلى رسول الله ﷺ ؟

لم يصدق صفوان أذنيه وهتف في ذهول:

- أخرج لمن ؟!

لاحقه خالد في هدوء:

- يا صفوان.. إننا والله غلبنا وما عاد لنا من الأمر شيء.

ولم يكن الحديث ليستمر طويلا أمام حالة الذهول التي كان عليها صفوان...

ولم يكن أمام خالد إلا أن يبرر الموقف بأنه من الصعب أن يقبل صفوان الأمر وقد قتل أبوه أمية في بدر على يد المسلمين..

إلا أن المحاولة الثانية لم تكن أفضل حالا من الأولى، فلقد كانت مع عكرمة بن أبي جهل..

وللمرة الثانية.. يبرر خالد الموقف بمقتل أبي عكرمة « أبي جهل » أيضا في بدر..

كان خالد يرى في كل خطوة من خطواته إلى المدينة، انتصار محمد ﷺ...

ذكريات الهزائم.. والحسرة تطارد الجميع وتدق عصاها الغليظة في قلوب الأبناء..

إلا أن «خالدا» استمر في المحاولات.. فهو القائد الذي لا يعرف الهزيمة أو اليأس..

وكانت المرة الثالثة مع عثمان بن طلحة حامل مفاتيح الكعبة..

وما إن رآه خالد، حتى تذكر مقتل أبيه وعمه وإخوانه الأربعة يوم أحد...

وبمنطق الحالتين السابقتين، فإن عثمان بن طلحة سيكون الأشد نفورا والأكثر عنادا..

إلا أن «خالدا» كان على موعد مع أول درس في الدعوة إلى الله..

أحيانا يتوارى المنطق أمام رغبة الله عز وجل في هداية البشر..

فلقد كانت نفس الأفكار تدور بخلد عثمان بن طلحة .. وبسرعة وعزم، أخذ الاثنان طريقهما إلى رسول الله ﷺ..

ربما كان قبول طلحة لعرض خالد نوعا من المفاجأة..

إلا أن «خالدا» و«عثمان».. كانا معا على موعد مع مفاجأة أخرى وهما في الطريق إلى المدينة.

مفاجأة مذهلة.

* * *

في السنة الخامسة من البعثة، بعثت قريش رجلا من خيرة رجالاتها وأذكاهم إلى الحبشة ليعود بالمسلمين المهاجرين إلى مكة مرة أخرى..

إلا أن عدل النجاشي وذكاء جعفر بن أبي طالب أمير المسلمين هناك، حالا دون نجاح مهمته..وعاد وقتها إلى مكة مهزوما منكسرا يجر أذيال الخيبة..

وفي السنة السادسة من الهجرة أيقن الرجل بعد صلح الحديبية أن الأمور قد وصلت إلى طريق مسدود.. وأن كل المقدمات أخذت تسير وبقوة إلى نتيجة واحدة..

أنه لا أحد يستطيع أن يوقف دعوة محمد بعد اليوم..

وبعدها.. أدرك أنه لم يعد له مكان في مكة.. فقرر الهجرة واللجوء السياسي إلى أرض الحبشة..عند النجاشي مرة أخرى..

ولم يكن هذا الرجل سوى عمرو بن العاص.

وفي السنة السابعة من الهجرة، قرر النبى ﷺ أن يرسل للمسلمين في الحبشة مبعوثا لعودتهم إلى المدينة..فبعث « عمرو بن أمية الضمري» برسالته إلى النجاشي..

وما إن رآه عمرو بن العاص أمام النجاشي، حتى ثار وطلب من صديقه النجاشي أن يقتله..

إلا أن صدمة أخرى لاحقته باعتراف النجاشي له بالإسلام..

وهنا أدرك عمرو بن العاص على وجه اليقين، أن الدعوة التي ظن أنه قد فر منها، قد أخذت تحاصره من كل اتجاه...

ويعود عمرو مرة أخرى من الحبشة مهزوما وهو في طريقه إلى مكة، وهو في حالة من التفكير العميق..

وفي الطريق، يقابل «خالدا» و«عثمان».وهما يشقان طريقهما إلى رسول الله ﷺ..

ولم يكن بعد هذا أي مساحة للتردد أوالتفكير..

فلقد اتخذ عمرو قراره بالإسلام، لينطلق الثلاثة في اتجاه المدينة.

وكان فرح المسلمين بالمدينة بقدوم هؤلاء الثلاثة لا يوصف.. خالد القائد العسكري الذي لا يشق له غبار، ينضم أخيرا إلى صفوف المسلمين بعد أن كبدهم ما كبدهم في الماضي..

وعمرو بن العاص داهية العرب..وعثمان بن طلحة حامل مفاتيح الكعبة..

وما إن وصلوا إلى المدينة حتى قال الرسول ﷺ بسرور بالغ:

« هذه مكة.. ألقت إليكم بفلذات أكبادها ».

وما إن دخل خالد المسجد متوجها بوجه مشرق إلى رسول الله ﷺ، حتى أشار الرسول ﷺ إليه بيده في حنان بالغ قائلا له:

« تعال يا خالد ».

وبكل تواضع الدنيا، جلس خالد بن الوليد بين يدي رسول الله، لينطق بكلمات الشهادة وسط فرحة غامرة من كل المسلمين:

– أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

قال له الرسول ﷺ في ثقة:

« قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير ».

إلا أن جرحا غائرا كان يريد خالد أن يشفى منه، فيدخل الإسلام صحيحا معافى، فنظر إلى رسول الله ﷺ متوسلا وهو يقول:

- يا رسول الله ..استغفر لي لما أوضعت من صد في سبيل الله.

ولم يكن رسول الله ﷺ ليرد إخلاص خالد في الطلب ، وإذا بالرسول الكريم ﷺ يطمئن « خالدا» قائلا:

« يا خالد...إن الإسلام يجب ما كان قبله »

ثم يرفع يديه إلى السماء ويدعو قائلا:

« اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد في سبيلك » .

الآن ارتاح خالد.. واستقر ضميره بعد أن اطمئن إلى عفوالله ورسوله ﷺ.. لقد غفر الله كل ما سببه خالد للمسلمين من إيذاء..

وما أشده من إيذاء..

ومنذ تلك اللحظة بدأ خالد رحلته الجديدة..كمسلم جديد سبقه الآلاف من المهاجرين والأنصار .. يعيش بين المسلمين بكل تواضع.

وكرجل عسكري..مصمم أن يعقد صفقة جديدة بينه وبين سيفه.

وأن يمحو آثار عشرين عاما من الجهاد ضد الله ورسوله ﷺ..

لأن يصبح وبحق..

سيف الله المسلول.

* * *

لم تكد تمر شهور، حتى بدأت بنود الصفقة بين خالد بن الوليد وسيفه في التنفيذ..

ففى العام الثامن للهجرة، قتل الحارث بن عمير الأزدي غدرا على يد الغساسنة وهو يبلغ رسالة من رسول الله ﷺ إليهم..

همجية ووحشية وبربرية، لا يمكن أن يكون لها إلا رد واحد..

الحرب...

الروم تتحالف مع الغساسنة ليصل الجيش إلى مائتي ألف مقاتل، منهم خمسون ألف فارس، أمام ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين...

حتى وإن وصل الأمر إلى هذا الحد..لابد من الحرب..

ولخطورة الأمر.. يعين الرسول ﷺ ثلاثة من القادة إذا قتل أحدهم تولى الآخر مكانه..

زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة.. ثم يختار المسلمون بعدها من

يشاؤون قائدا لهم..

وكان ملاحظا أن الرسول ﷺ لم يختر « خالد بن الوليد »حتى كاسم رابع، ولم يكن خالد بن الوليد ينتظر ذلك..

فخالد لم يمض على إسلامه إلا شهور، لم يعش بين المسلمين وينخرط فيهم، ولم يكن من المنطقى أن يقدمه الرسول ﷺ على قادة من المهاجرين والأنصار لهم من الخبرة في الحروب والتعامل مع المسلمين سنوات وسنوات..

ولم يكن خالد بالرجل الذي يقدم نفسه على غيره بدون وجه حق..

ودارت معركة مؤتة..وشاءت الأقدار أن تأتي القيادة لمن لم يسمه الرسول ﷺ، ولمن لم ينتظرها.. فلقد استشهد زيد، ومن بعده جعفر، ثم لحق بهما آخر القادة عبد الله بن رواحة..

وازداد الموقف صعوبة وتعقيدا بعد أن أصبح الجيش بدون قائد، وعلى المسلمين أن يختاروا قائدا لهم أثناء المعركة.. وبمنتهى السرعة..

وحتى في هذه اللحظة البالغة الصعوبة، لم يجرؤ خالد أن يتقدم ليحمل الراية قائدا للمسلمين، فالذي حملها هو ثابت بن أقرم -وبسرعة البرق- جرى بها إلى خالد بن الوليد ليقول له في حماس:

- خذ اللواء ، يا أبا سليمان.

وبكل تواضع يرفض خالد تسلم الراية قائلا لثابت:

- لا.. لا آخذ اللواء، أنت أحق به..لك سن وقد شهدت بدرا.

ويمسك ثابت بالراية ليضعها في يد خالد في إصرار وهو يقول:

- خذها.. فأنت أدرى بالقتال مني، ووالله ما أخذته إلا لك.

وقبل أن يرد عليه خالد، لم ينس وصية الرسول ﷺ بالشورى لاختيار القائد الرابع، فوقف ينادي في المسلمين قائلا:

- أترضون إمرة خالد ؟

ولم يكن المسلمون ليترددوا في قبول قيادة قائد عسكري ماهر طالما عرفوه.. فأجابوا بإصرار وثقة:

- نعم.

وبدأ خالد يمارس عبقريته العسكرية كأفضل ما يكون القائد، ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل في طول التاريخ وعرضه.

كانت المشكلة الرئيسية في معركة مؤتة هى التفوق العددي الرهيب لجيش الغساسنة والرومان نسبة إلى المسلمين، وبالتالي.. كان الأمر يحتاج إلى خطة للتغلب على هذه المشكلة تتسم بالعقل

والحكمة والفاعلية، على الأقل لكسب الوقت..

ولقد نجح زيد بن حارثة في وضع خطة تشبه إلى حد كبير خطة الرسول ﷺ في غزوة أحد..

رأى زيد أن يتحصن المسلمون في قرية يكون يمينها ويسارها وخلفها مغلق، أما واجهة المدينة فهى مفتوحة، وهى الواجهة التى سيواجه منها المسلمون الروم، بحيث يصطف جيش المسلمين وتعداده ثلاثة آلاف مقاتل بعرض واجهة المدينة فلا يجد الرومان مفرا من أن يصطفوا صفوفا كل منها ثلاثة آلاف مقاتل، وبذلك تتساوى قوة المسلمين أمام قوة الروم.

ولقد كانت خطة عبقرية بالفعل..

ورغم أن الرومان كانوا يقومون بعملية تبديل لهذه الصفوف كل فترة، إلا أن المسلمين تفوقوا تفوقا كبيرا على مدار خمسة أيام، فلم يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر مسلما، أمام بضع مئات من الروم.

وفي اليوم السادس.. وبعد استشهاد زيد وجعفر وابن رواحة، تسلم خالد بن الوليد الجيش، وأكمل خطة زيد ببراعة وبشراسة، حتى تكسر لخالد بن الوليد تسعة سيوف في هذا اليوم !!

إلا أن خالد بن الوليد العسكري المخضرم، رأى بعد يوم واحد من المعركة، أن المعركة لن تنتهى أبدا لصالح المسلمين، فبمرور الوقت سيضعف المسلمون حتما وتقل قواهم ويكثر قتلاهم، ولن يكون الوقت أبدا في صالحهم..

والمسلمون الآن في لحظة انتصار تمكنهم من تنفيذ خطة يتم بها إنهاء الحرب، بعد أن حقق المسلمون أهدافهم منها..

تأديب جيش الغساسنة وإظهار قوة المسلمين..

وبدأ خالد يضع الخطة..

خطة الانسحاب..

ربما للوهلة الأولى يظن أن من السهولة أن يضع المرء خطة انسحاب، إلا أن الواقع يقول: إن فشل خطة الانسحاب قد يؤدي إلى كارثة مفجعة، تصل خسائرها إلى أضعاف أضعاف خسائر الحرب نفسها..

ولقد كان خالد يدرك ذلك جيدا..

فوضع خطة للانسحاب كانت كفيلة بأن يشهد لها التاريخ..

سيعتمد خالد أولا على إضعاف الروح المعنوية للرومان؛ بإيهامهم بأن مددا قد وصل للمسلمين، فأعطى أوامره بأن يغتسل الجنود وينظفوا ثيابهم، وأن تدهن الرايات ويعاد كتابتها..

ثم تستبدل الميمنة بالميسرة والميسرة بالميمنة والمقدمة بالمؤخرة والمؤخرة بالمقدمة...

وفي نفس الوقت يتأخر عن الجيش ثلاثمائة فارس، يقومون بتهييج أفراسهم بصورة توحي للمقاتلين الروم بأن هناك مددا آخر للمسلمين في الطريق..

ويقسم الفرسان إلى ستة كتائب، كل كتيبة خمسون فارسا ..وعند إشارة محددة، تهجم الكتائب تباعا بكل شراسة، فتضرب الرومان ضربة مدوية تلف رؤوسهم..

وعندها.. وبإشارة أخرى متفق عليها، تبدأ الكتائب ومن بعدها الجيش في الانسحاب التدريجي...

وبالفعل.. فعندما رأى جيش الرومان الجيش الجديد - الوهمي- تأثرت روحهم المعنوية كثيرا، وعندها ناولهم المسلمون ضربة قتلت المئات منهم، أضعفتهم أكثر وأكثر، وعندما انسحب المسلمون، لم يجرؤ الرومان على الزحف وراءهم والانقضاض عليهم..

فلم يتخيلوا أبدا أن ما يحدث أمامهم هو في واقع الأمر انسحاب للجيش.

بل ظنوا أن الأمر ما هو إلا كمينا يدبر لهم، فظلوا في أماكنهم، وعندما تنبهوا، كان خالد بن الوليد وجيشه على مشارف المدينة، يستقبله الرسول ﷺ استقبالا حافلا، ويطلق عليه أعظم لقب لقائد عسكري في التاريخ..

« سيف الله المسلول ».

لقد أظهر خالد بن الوليد عبقرية نادرة في معركة مؤتة، وقدرة فائقة على التفكير السريع والتخطيط الماكر الدقيق..

لقد كان الفشل في معركة كمعركة مؤتة، كفيل بأن يقضي على المسلمين تماما بعد مشوارهم الطويل والعنيف مع قريش، إلا أن مهارة خالد العسكرية، مكنته من أن يجعل قبائل الجزيرة العربية جميعها توقن بقوة المسلمين ورسالتهم ، بعد أن أدبوا الروم، فأسلمت قبائل بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة...وأيقنوا بعدها أن الإسلام لن تقف حدوده عند الجزيرة العربية، بل إنه سيتعداها بكثير..

مهما كان من يقف وراء هذه الحدود...

مهما يكن.

* * *

بينما يرتفع نجم المسلمين في الجزيرة العربية بعد غزوة مؤتة، بينما تفقد قريش أعصابها بعد أن أسلمت أمورها إلى قادة كان ينقصهم الكثير من الحكمة والكثير من الأخلاق..

لقد خانت قريش عهدها مع الرسول ﷺ، وشاركت بنى بكر في قتل أناس من قبيلة خزاعة..وأدركت قريش بعد فوات الأوان، أنها قد أخطأت خطيئة العمر..

وفي اليوم العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، كان يتحرك عشرة آلاف مقاتل من

المسلمين من المدينة تجاه مكة..

وقسم الرسول ﷺ الجيش، ووضع خالد بن الوليد على الميمنة، وأبلغه أن مهمته أن يدخل مكة من الجنوب، ليقابل الرسول ﷺ عند جبل الصفا عند الدخول، وأن يقوم بالتعامل مع من يقابله من المشركين في الطريق ، إذا حدثت أية مواجهات..

ولقد حدثت مواجهات بالفعل، ولكنها كانت من العيار الخفيف الذي لا يجد خالد بن الوليد أي مشقة في التعامل معه..

فلقد خرج « حماس بن قيس» ليصد جيش خالد بن الوليد، ولم تكد تمر ساعات حتى قتل من المشركين اثنا عشر رجلا، والذين كان عددهم كافيا لإقناع حماس بترك المعركة مذعورا، والهروب إلى بيته وهو يقول لامرأته في ذعر:

- أغلقي علي بابي !!

ويدخل خالد بن الوليد مكة من الجنوب، ويدخل الزبير بن العوام من الشمال، وتدخل القبائل تباعا أمام أعين أبي سفيان وغيره من قادة قريش، غير مصدقين ما يحدث..

وغير مصدقين أيضا أن هذا الفارس، كان من عام واحد فقط يقاتل في صفوفهم، وهو الآن يدخل بلادهم فاتحا في نصر للمسلمين يكتب كلمة النهاية للكفر والجاهلية...

لقد ضاعف وجود خالد بن الوليد في صفوف المسلمين صدمة قريش، وشعروا أن الهزيمة أكبر من أن توصف..

ويستمر خالد..

تارة يصنع انتصارا وتارة يشارك في انتصار...

وبعد شهور.. تنتهي رحلة الرسول ﷺ وتكتمل رسالته...

وبمجرد وفاة الرسول ﷺ.. وتولي أبي بكر الخلافة.. كانت تنتظر خالد مواجهات عسكرية غاية في العنف والشراسة.

حروب الردة.. ومعركة اليمامة.

* * *

مفاجأة مذهلة.. وكارثة تحل بالمسلمين..

آلاف المسلمين من قبائل متفرقة يرتدون عن الإسلام وترفض دفع الزكاة...

الروم والفرس يشعلون حركة التمرد في قبائل أسد، وغطفان، وعبس، وطيئ، وذبيان وبني عامر، وهوازن، وسليم، وبني تميم..

عشرات الآلاف من المقاتلين يقفون في مواجهة المسلمين..

ويصر أبو بكر على قيادة الجيش بنفسه، رغم اعتراض الصحابة الشديد على ذلك، وينتصر أبو بكر انتصارا ساحقا، وتعود الأمور للاستقرار مع عودة الجيش مرة أخرى...

إلا أنه كان استقرارا مؤقتا...

تصل الأخبار أن المرتدين يبدؤون في تجميع جيوشهم مرة أخرى، ويصر أبو بكر مرة أخرى على أن يكون على رأس الجيش، إلا أن إصرار الصحابة هذه المرة كان أكبر، فإذا بعلي بن أبي طالب يعترض طريق أبي بكر ويمسك بزمام راحلته قائلا في توسل :

- إلى أين يا خليفة رسول الله..؟!.

إني أقول لك ما قاله رسول الله ﷺ يوم أحد:

لم سيفك يا أبا بكر لا تفجعنا بنفسك.

وأمام إصرار الصحابة، لم يجد أبو بكر بدا من أن يقسم الجيش إلى إحدى عشرة مجموعة، ويجعل خالد بن الوليد على رأس إحداها، ولما عقد الخليفة لكل أمير لواءه، اتجه صوب خالد وقال يخاطبه:

- سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« نعم عبد الله وأخوالعشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله، سله الله على الكفار والمنافقين»..

ولم يخيب خالد الظن أبدا...

فأخذ يتنقل من نصر إلى نصر، حتى جاء موعد المعركة الفاصلة والحاسمة...

معركة اليمامة..

مسيلمة الكذاب يقود أعتى جيوش الردة على الإطلاق..

ولقد استطاع أن يحقق انتصارات على بعض جيوش المسلمين، انتصارات أكسبته المزيد من الثقة..والمزيد من الغرور..

ومع ذلك.. فبمجرد علمه بقدوم خالد إليه .. سارع بتنظيم صفوفه وتهيئة جيشه لمعركة كبيرة وفاصلة ..

والتقى الجيشان.. ودار قتال رهيب، حقق معه جيش مسيلمة تفوقا ملحوظا، تساقطت معه أعداد ليست قليلة من المسلمين..

وهنا شعر خالد بالخطر، وبدأ يفكر في خطة جديدة تحول دفة المعركة لصالحه..

إنه نفس السلاح القديم الذي استخدمه في مؤتة بنجاح ساحق..

سلاح الروح المعنوية..

إلا أنه في هذه المرة كان يستخدمه لشحذ همم المسلمين بصورة فريدة.

لقد أراد أن يزيد قوة المسلمين النفسية، بأن يقسم الجيش إلى مجموعات تتنافس فيما بينها، فيدفع الجميع إلى إظهار أفضل ما عندهم، وفي نفس الوقت يصل خالد إلى موضع الخلل..

وقف خالد يصيح بقوة في المسلمين قائلا:

- امتازوا، لنرى اليوم بلاء كل حي.

وبدأ الجيش في إعادة تصنيفه..

فوقف المهاجرون تحت راية، ووقف الأنصار تحت راية، ووقف كل تحت رايته..

وبدأ القتال من جديد..

وفوجئ جيش مسيلمة بهذا الحماس الناري للمسلمين وكأنهم قد أصبحوا جيشا جديدا..

وبدأ مسار المعركة يتجه ناحية المسلمين بمرور الوقت، وراح جنود مسيلمة يتساقطون بالعشرات ثم بالمئات والآلاف..

وفي النهاية يقتل مسيلمة.. لتطوى بمقتله صفحة كارثة وفتنة رهيبة، واجهت المسلمين فور وفاة الرسول ﷺ..

ويعود خالد بن الوليد إلى المدينة منتصرا كالعادة..

ويسجد أبو بكر شكرا لله على نصر عظيم..

وعلى قائد عظيم.

* * *

أخيرا..انتهت مشكلة المرتدين.. وهدأ أبو بكر نسبيا ..

إلا أن أمرا لا يزال يقلقه ولن تستقر نفسه إلا بعد أن ينتهي منه...

الفرس والروم..

دولتان أصبحتا خصما عنيدا للمسلمين، وأصبحتا خطرا على استقرار الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة، وتأكد تآمرهما في حروب الردة على المسلمين..

والحل...

حركة تأديبية قوية، تجعلهم لا يجرؤون على مجرد التفكير في ضرب استقرار دولة المدينة مرة أخرى..

لم يفكر أبو بكر كثيرا فيمن يبعثه على رأس الجيش إلى الفرس في العراق.. فبعد معركة اليمامة، لن يكون إلا هو..

خالد بن الوليد..

وإلى الروم بعث أبو بكر عددا من أمهر قادة المسلمين..أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان..

حربان حاسمتان مع دولتين كبيرتين ، عدم انتهائهما لصالح المسلمين يعد كارثة بكل المقاييس..

ويبدأ خالد بن الوليد المعركة بالحرب النفسية التى يتقنها جيدا.. فيرسل رسائله إلى كل ولاة كسرى على مدن العراق.. رسالة رعب لم يستطع الفرس أن يصمدوا أمامها طويلا:

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من خالد بن الوليد.. إلى مرازبة فارس..

سلام على من اتبع الهدى..

أما بعد، فالحمد لله الذي فض خدمكم، وسلب ملككم، ووهن كيدكم.

من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا.

إذا جاءكم كتابي فابعثوا إلي بالرهن واعتقدوا مني الذمة..

وإلا، فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة!! ».

وكما بعث برسالة الرعب إلى ولاة كسرى، أصدر أوامر الرحمة والخلق إلى جنوده قائلا:

« لا تتعرضوا للفلاحين بسوء، دعوهم في شغلهم آمنين، إلا أن يخرج بعضهم لقتالكم، فآنئذ قاتلوا المقاتلين».

أخلاق حربية فريدة من الصعب أن ينهزم أصحابها، وقد تسلحوا بإيمان قوي وتدريب متقن..

وتوالت الانتصارات.. من الأبلة إلى السدير، فالنجف، إلى الحيرة، فالأنبار، فالكاظمة... لا أحد يستطيع أن يوقف خالدا وجيشه.. ورايات الإسلام المرفوعة، لا أحد يجرؤ أن يخفضها..

زحف مستمر.. انتهى بانتصار ساحق ماحق، وصل معه خالد بن الوليد إلى حدود الشام.

وفي فرحة غامرة وحماس منقطع النظير، انطلقت التكبيرات تخبر الكون كله بنصر الله..

ووصل الخبر إلى أبي بكر..

لا شك أنه أعجب بقدرات خالد بن الوليد التى تزداد تألقا يوما بعد يوم، ومن معركة إلى معركة ، ووصل اقتناعه به إلى درجة جعلته يرسل إليه بتولي قيادة جيش المسلمين في الشام..

لم يكن إمبراطور الروم يحتاج إلى خطة الحرب النفسية التى يضعها خالد في خططه دائما، فإمبراطور الروم كان منهارا من البداية ولا يحتاج إلى من يرسل إليه رسائل أو تهديدات، فبمجرد أن علم بزحف المسلمين عرض على وزرائه الصلح بدلا من الدخول مع المسلمين في حرب خاسرة..

إلا أن وزراءه رفضوا بشدة وأصروا على القتال قائلين:

- والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد خيله إلى أرضنا.

وجهزوا جيشا من مائتين وأربعين ألف مقاتل..

وبعث قادة المسلمين إلى أبي بكر ليعلموه بالموقف، فإذا بأبي بكر يقول بإصرار وتحد ليس له نظير:

- والله لأشفين وساوسهم بخالد.

كان أبو بكر ينظر دائما لخالد بن الوليد بوصفه رجل المهمات الصعبة، والقائد المؤهل جيدا لأن يدخل حروبا غير تقليدية، تلك النوعية من الحروب التى تختل فيها موازين القوى، وتصبح المسألة في أشد الاحتياج إلى حلول مبتكرة، وقدرة هائلة على التنفيذ السريع..

نجح خالد في مؤتة بامتياز.. وفي اليمامة باقتدار.. ومع الفرس ببراعة..

والآن جاء الدور على الروم..

وبخبرة خالد الكبيرة، رأى أن أمر أبي بكر بتوليته قيادة جيش الروم رغم وجود قادة مهرة على رأسه، كأبي عبيدة وعمرو بن العاص ومعاوية ويزيد، أمرا لا يستطيع أن يعتذر لأبي بكر عنه، ومستحيل أيضا أن يناقش الأمر مع أبي بكر لضعف وسائل الاتصال، فقرر أن يقبل القرار ويتعامل معه، بعد أن ولى المثنى بن حارثة على العراق..

رأى خالد أن توليته على جيش به هذا العدد من القادة الكبار، قد يسبب بعض الحساسية والتى قد تضعف من الروح المعنوية للجيش، وهوالسلاح الذي يعتمد عليه خالد بدرجة أساسية في حروبه...

ففكر خالد.. وقرر أن تكون قيادة الجيش بالتناوب بينه وبين الآخرين..

وقبل أن يصرح خالد باقتراحه الجميل، قرر أن يرسل رسالة تذكر الجميع بالإخلاص لله، وعدم نسيان الهدف الأسمى للجهاد وهو رضا الله عز وجل...

وأنه لا مكان اليوم للتفاخر ولا للظلم.

وأخذ ينادي في الجيش قائلا:

- إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى..أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، وتعالوا نتعاون الإمارة، فيكون أحدنا اليوم أميرا، والآخر غدا، والآخر بعد غد، حتى يتآمر كلكم.

خالد قال وفعل في نفس الوقت..

لقد أثبت في التو واللحظة، أن هذا اليوم يوم لله ولا شيء غير الله، وهاهو يتنازل عن إمارة الجيش لغيره بإرادته وليس غصبا من أحد..

وهنا.. نجح خالد في الحفاظ على وحدة الصف، والقضاء على أقاويل هامسة في مهدها، من شأنها أن تضعف النفوس وتثبط العزيمة.

وكانت هذه هي الخطوة الأولى..

أما الخطوة الثانية.. فهى خوفه من تراجع البعض من هول جيش الروم بعدده وعتاده، وإذا حدث.. فسيكون دافعا للغير في أن يفكر في الانسحاب أمام جحافل ليس لها أول من آخر..

ولذا.. وبعد أن أخذت كل فرقة موقعها المرسوم، سلم النساء سيوفا وقال لهن في حزم وشدة واضحة ليس فيها شك:

- من يولي هاربا.. اقتلنه !

وينجح خالد بقراره الحاسم الجريء أن يضبط الإيقاع النفسى للجيش، وأن يفرغ تفكير كل جندي في المعركة لشيء واحد فقط، القتال حتى النصر أوالشهادة..

لا مجال للتراجع.. أوالتفكير في التراجع.

وحسب نظرية خالد الأثيرة، لا يهمه عدد الجيش المقابل ولا أسلحته مهما كانت متطورة، يهمه فقط أن يكون جنوده على ثبات ..

نعم..الثبات والروح المعنوية العالية، هي كلمة السر لدى خالد في كل حروبه..

لم تخيب ظنه أبدا..

والآن.. اطمئن خالد إلى جنوده ليبدأ المعركة..

ولقد أهدى قائد الروم بداية رائعة لخالد وجيشه، كان حريا بخالد أن يشكره عليها من أعماق نفسه..

فبكل غطرسة الدنيا وقف قائد الروم قبل المعركة ليقول لخالد في تعال:

- علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم إلا الجوع والجهد..

فإن شئتم، أعطيت كل واحد منكم عشرة دنانير، وكسوة، وطعاما، وترجعون إلى بلادكم، وفي العام القادم أبعث إليكم بمثلها.

أثارت تلك الكلمات المسلمين و « خالدا » إلى أبعد حد، والذي ضغط على أسنانه وهو يرد على قائد الروم بسخرية وعزة قائلا:

- إنه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت، ولكننا قوم نشرب الدماء، وقد علمت أنه لا دم أشهى وأطيب من دم الروم، فجئنا لذلك.

وبكل الغيظ والحماس، أدار جواده إلى المسلمين لينادي فيهم بكل ما أوتي من قوة قائلا:

- الله أكبر.. هبي رياح الجنة.

وفي لمح البصر.. انطلق الجنود بسرعة فائقة وكأنها قذائف موجهة لا تعرف لها جنود الروم ردا، وراح المسلمون يقاتلون قتالا ضاريا ليس له نظير، وبدأت البطولات الفريدة تحكي عن أصحابها..

لقد نجح خالد في رفع المعنويات، بصورة طغت تماما على الفارق الرهيب في العدة والعتاد بين جيش المسلمين وجيش الروم.

ولقد شهدت مواقف كثيرة بما وصل إليه المسلمون في هذه المعركة من إيمانيات مرتفعة، كان من الصعب أن يقف أمامها أحد..

فهذا رجل يقترب من قائده أبي عبيدة بن الجراح ويقول له في فرح المنتصرين والمعركة لا تزال دائرة:

- إني قد عزمت على الشهادة، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ أبلغها له حين ألقاه؟!

ويبتسم أبو عبيدة له قائلا:

- نعم.. قل له: يا رسول الله.. إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا.

نعم.. قل له: يا رسول الله.. أتتذكر المستضعفين الأذلاء المطرودين المقهورين..

إنهم الآن يقاتلون الروم في الشام بعد أن تغلبوا على الفرس في العراق..

يا رسول الله..إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا.

ومن صلب الكفر يخرج عكرمة بن أبي جهل..

نعم عكرمة بن أبي جهل، والذي يشعر بتفوق نسبي للروم في أحد الأماكن، فيصيح ليلهب حماس المسلمين حوله قائلا:

- لطالما قاتلت رسول الله ﷺ قبل أن يهديني الله إلى الإسلام، أفأفر من أعداء الله اليوم؟!

ثم يصيح:

- من يبايع على الموت؟

فتنطلق مجموعة من حوله، ألهبتهم الكلمات في شوق جارف إلى الشهادة.. فيستشهدون..

وفي مشهد من مشاهد الإيثار النادرة التي لن ينساها التاريخ..

إذا بأحد الجنود قد أصابه جرح غائر فيؤتى إليه بماء ليروي ظمأه، فإذا به ينظر إلى جانبه فيجد أخاه في حاجة أشد منه إلى الماء، فيعطى الساقى إشارة بالذهاب إليه ، فينظر الثاني إلى جواره ليجد أخا له أكثر منه حاجة إلى تلك الشربة البسيطة، فيشير إلى الساقي بالذهاب إليه، فشرب.. وإذا بأكثرهم ظمأ يلقى ربه شهيدا في سبيل الله.

لقد كانت معركة اليرموك ملحمة فداء وبطولة نادرة، بهرت قادة الروم أنفسهم..

فمن أين يأتي خالد بن الوليد ومائة فقط من المسلمين معه، بالشجاعة التى تجعلهم يهجمون على مسيرة قوامها أربعون ألفا من الروم ، وهو يقف مشيرا بسيفه بكل قوة وثقة متناهية في النصر قائلا:

- والذي نفسي بيده، ما بقي مع الروم من الصبر والجلد إلا ما رأيتم.

وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم.

والأعجب أنهم ينتصرون..

إن الإيمان سر النصر الذي لا يعرفه إلا المسلمون.. القوة الخفية التي يهبها الله للمسلمين وحدهم دون غيرهم..

تلك القوة الخفية هي التي حملت مفاجأة غير متوقعة لخالد بن الوليد في إحدى فترات الراحة أثناء لمعركة...

لقد أسلم أحد قادة الروم !!

في إحدى فترات الراحة، يخرج (جرجة) أحد -قادة الروم الذين بهروا بعبقرية خالد الحربية وقدرة المسلمين القتالية الفائقة، ويقرر أن يتحدث إلى هؤلاء الناس ليعرف من هم، وما هي تلك القوة النفسية الرهيبة التي تجعلهم يفعلون ما يفعلون..

وعندما يصل (جرجة) إلى معسكر المسلمين، يطلب لقاء خالد بن الوليد، ويخرج خالد في تواضع، فيجد القائد (جرجة) ينظر إليه بعين شاردة وهو يسأله:

- يا خالد.. اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب..

هل أنزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاك إياه، فلا تسله على أحد إلا هزمته؟!!

قال خالد:

- لا..

- قال الرجل: فبم سميت سيف الله؟

قال خالد:

- إن الله بعث فينا نبيه ﷺ، فمنا من صدقه ومنا من كذبه، وكنت فيمن كذبه حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ فبايعناه..

فدعا لي الرسول ﷺ، وقال لي: أنت سيف من سيوف الله، فهكذا سميت.. سيف الله.

قال القائد الرومي: وإلام ما تدعون..؟

قال خالد:

إلى توحيد الله، وإلى الإسلام.

قال:

هل لمن يدخل في الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر؟

قال خالد: نعم وأفضل..

قال الرجل: كيف وقد سبقتموه..؟

قال خالد:

لقد عشنا مع رسول الله ﷺ، ورأينا آياته ومعجزاته وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم في يسر..

أما أنتم يا من لم تروه ولم تسمعوه، ثم آمنتم بالغيب، فإن أجركم أجزل وأكبر، طالما صدقتم الله في سرائركم ونواياكم.

وعندها.. صاح القائد الرومي وقد دفع جواده إلى ناحية خالد ووقف بجواره وهو يقول: علمني الإسلام يا خالد.

وتمر دقائق قليلة من الحوار بينهما ليسلم (جرجة)، ويصلى ركعتين لله عز وجل.. لم يصل سواهما، فقد استأنف الجيشان القتال.. وقاتل (جرجة) الروماني في صفوف المسلمين مستميتا في طلب الشهادة، حتى نالها وظفر بها !

انتصارات عسكرية تصحبها انتصارات دعوية..

لقد نجح خالد ونجح المسلمون نجاحا منقطع النظير..

وإذا بالمعركة تقترب من نهايتها..

فإذا برسالة تقطع الطريق من المدينة إلى الشام، حاملة معها مفاجأتين كبيرتين..

ومذهلتين..

* * *

وفاة خليفة المسلمين أبي بكر الصديق..

وعزل خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه..

كان هذان الخبران هما فحوى الرسالة التى وصلت إلى أبي عبيدة بن الجراح من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب عن طريق مبعوثه محمية بن زنيم.

ويأخذ أبو عبيدة الرسالة ويتكتم على الخبر حتى تنتهي المعركة بنصر الله..

ويذهب أبو عبيدة بكل أدب وتواضع إلى خالد فيسلمه الرسالة، فلا يجد إلا قائدا مخلصا متواضعا..

لا ثورة ولا اعتراض على القرار ولا قيادة لحركة تمرد في الجيش..

قبول القرار بكل بساطة، دون النظر إلى أي اعتبارات شخصية، وتسليم الجيش بكل سهولة ويسر إلى أخيه أبي عبيدة بن الجراح.

لقد كان تصرف خالد في هذا الموقف دليلا واضحا على إخلاص نادر لقائد لا يشق له غبار،

يتنازل عن قيادة جيش بعد انتصار أسطوري في معركة مع أعظم جيوش العالم..

لقد كان هذا الموقف خير ختام لملحمة صنعها خالد بن الوليد في معركة اليرموك.

إنه انتصار على النفس، ربما يكون أصعب عشرات المرات من انتصاره على جيوش الفرس والروم مجتمعة..

ولقد فاز خالد في كل المعارك..

الفرس والروم.. والنفس..

حقا.. إنه سيف الله المسلول.

كان أبو بكر الصديق يجد « خالدا » قائدا ماهرا مبتكرا سريع الحركة والتفكير، قائدا بارعا في اتخاذ القرارات الصعبة وكيفية تنفيذها، والوصول بجنوده إلى الحالة النفسية المطلوبة للمعركة..

كان يجد فيه رجلا لا يعرف المستحيل، مهما كانت صعوبة المهمة وخطورتها ودقتها.

وكان عمر بن الخطاب يرى ذلك أيضا، إلا أنه كان يضيف عليها صفة أخرى كانت تقلل من أسهم خالد عنده..

التسرع...

لقد كان عمر يرى أن سيف خالد أقرب إليه من لسانه.. وأن تنشئته تنشئة حربية منذ الصغر، جعلته يبتعد قليلا عن الحس الدعوي الأصيل في الأمة، والذي يسبق القتال والحرب.

فلا زال عمر بن الخطاب يذكر عندما بعثه الرسول ﷺ إلى إحدى القبائل العربية بعد فتح مكة قائلا له:

« إني أبعثك داعيا لا مقاتلا».

إلا أن خالد بن الوليد غلب عليه دور الفارس أكثر من دور الداعى، وعندما وصل الخبر للرسول ﷺ، انزعج وانتفض وغضب غضبا شديدا، ورفع يده إلى السماء في تضرع قائلا:

« اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد».

ثم أرسل عليا فأودى لهم دماءهم وأموالهم.

واعتذر خالد وقتها بأنه لم يكن ليفعل ذلك إلا عندما أخبره عبد الله بن حذافة السهمي قائلا:

- إن رسول الله ﷺ قد أمرك بقتالهم لامتناعهم عن الإسلام.

بالتأكيد كان ما قاله الرسول ﷺ عن خالد شديدا، وبالتأكيد تأثر عمر كثيرا مما فعل خالد؛ ولذا كان عمر يبرر موقفه من خالد قائلا:

- إن في سيف خالد رهقا.

إلا أن سببا آخر أدركه عمر بحسه الدعوي المرهف، هو أن الجنود بدءؤوا يفتتنون بخالد،

والفتنة بشخص تعنى الابتعاد عن أهداف الدعوة ومقاصد الرسالة، وتعني العمل للشخص.. لا لله.. فرأى عمر أن يبعده ولو مؤقتا عن الإمارة.

على أن رأي عمر بن الخطاب في خالد هذا، لم يكن يتنافى أبدا مع تقدير عمر الشديد لخالد ولمواهبه الحربية الفذة، ولجهاده المميز لرفع راية الإسلام.

ولقد كانت شهادة عمر بن الخطاب لخالد شهادة دامغة لا تحتاج إلى تأويل حين قال:

- عجزت النساء أن يلدن مثل خالد!

نعم.. فرغم ما قاله عمر في خالد، كان عمر يرى فيه نموذجا فريدا لن يتكرر.. وكان ينتظر التوقيت الذي يعيده إلى الإمارة مر ة أخرى..

إلا أن القدر لم يمهله.. ولم يمهل « خالدا ».

فلقد جاءت نهاية خالد بن الوليد في العام الحادي والعشرين من الهجرة.. نهاية لم يكن ينتظرها خالد يوما..

لقد مكث خالد يحتضر على فراش الموت حزينا وهو يقول في أسى بالغ والدموع تتساقط من عينيه:

- لقد شهدت كذا، وكذا زحفا، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح، أو رمية سهم.. ثم ها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

كانت مأساة خالد بن الوليد، أن يموت فارس مجاهد مثله على فراشه، فلا يتميز في وفاته عن ملايين البشر الذي يموتون على فراشهم..

كان صعبا على قائد مثله ألا يموت في أرض المعارك التي يعشقها كما يعشق الشهادة في سبيل الله..

ومات خالد بن الوليد..

مات على غير ما تمنى..

بلغ منزلة الشهداء نعم.. لكنه كان يريد أن تأتي الشهادة تحت ظلال السيوف، لا على فراش الأسرة.

مات خالد بن الوليد..

وبكى عمر..

بكاه كثيرا كما لم يبك أحدا من قبل..

ووقف على مثواه، وأمه تلقي بكلمات الشعر عليه كالورود..

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال

أشجاع..؟ فأنت أشجع من ليث غضنفر يذود عن أشبال

أجواد..؟ فأنت أجود من سيل غامر يسيل بين الجبال

ويسمع عمر ويهز رأسه قائلا في حزن عميق:

- صدقت..

-والله إنه كان كذلك.

ودفن خالد..

وذهب الصحابة من حوله في حزن كأشد ما يكون الحزن.. ليتركوه يستريح..وهوالذي لم يسترح أبدا، حتى قال عنه أصحابه وأعداؤه:

- إن خالدا لا ينام، ولا يترك أحدا ينام !!

ذهب الجميع وهم يتذكرون كلمات لن تنتهي حتى وإن انتهت حياة صاحبها:

« ما ليلة يهدى إلى فيها عروس، أو أبشر فيها بوليد، بأحب إلي من ليلة شديدة الجليد، في سرية من المهاجرين، أصبح بهم المشركين».

نم يا خالد واسترح..فلابد من وقت يرتاح فيه الجسد.

نم يا أبا سليمان..

فرايات الإسلام في كل مكان.. تبعث بتحياتها الحارة إليك.

* * *

دروس وتحليل

١ – النفس الإنسانية تحوى الخير والشر، والشخص النابه هوالذى يستطيع أن يكتشف نقاط الخير في غيره ويحركها (الرسول ﷺ يبعث إلى خالد رسالة رقيقة تحرك فيه رغبته في الإسلام).

رغم ما كان لخالد بن الوليد من دور فعال في إيذاء المسلمين، لا سيما في أحد والتى قتل فيها سبعون من خيرة الصحابة، إلا أن الرسول ﷺ كان يرى في خالد بن الوليد جوانب طيبة، وكان يفسر ما يقوم به لطبيعة مهمته العسكرية أكثر من العداء الخالص للإسلام والمسلمين، وعندما حانت الفرصة لكى يحرك الرسول ﷺ تلك الجوانب الطيبة في خالد، فعل، ولقد آتت ثمارها بالفعل؛ لذكاء الرسول ﷺ في اختيار التوقيت المناسب لتحريكها.

إننا دائما ما نقع في خطأ كبير، فنحكم على الأشخاص بطريقة شهيرة تعرف بحكم (الأبيض والأسود)، فنحن دائما نفترض أن الشخص إما أن يكون خيرا كله أو شرا كله، ونتجاهل تماما المنطقة الرمادية، فالشخص الذي نظن فيه الخير لا يخلو من عيوب، والشخص الذي نعتبره سيئا لا يخل من ميزات كفيلة بأن تشجعنا إلى أن نلتفت إليها ونلعب على وترها، هذه الطريقة في الحكم على الأشخاص، تجعلنا نسيء فهم الناس في كثير من التصرفات، وتدفعنا إلى تفسيرها التفسير الذي يتناسب مع حكمنا المسبق على الشخصية ،كما أنها طريقة تقطع الطريق علينا للاستفادة من شخصيات بها ميزات جيدة بالفعل، ولكننا لا نراها لأننا قد وضعنا الشخص منذ زمن في خانة.. (أسود).

فلنتعلم أن نكون موضوعيين في الحكم على شخص ما، فنراه كله بميزاته وعيوبه، بصفاته الحسنة والسيئة، هذه الطريقة ستتيح لنا فرصة أكبر في التعايش مع الآخرين، والتعاون معهم.. وإصلاحهم أيضا.

٢ – فرحة الحرية هى التى دفعت خالد بن الوليد إلى دعوة أصدقائه واصطحابهم معه إلى المدينة بعد أن اتخذ قراره بالإسلام (خالد بن الوليد يحاول أن يدعو صفوان وعكرمة وعثمان بن طلحة للإسلام والهجرة معه).

لم يكن من المعتاد من المهاجرين أن يقوموا بدعوة أحد قبل هجرتهم إلى المدينة، إلا أن خالد بن الوليد كان مصرا على ذلك، وأرى أن تفسير ذلك هو ما يلي:

– كان تصرف خالد يعكس حالة التردد التى كان عليها قبل إسلامه ، والتى ما لبثت أن تحولت إلى حماسة شديدة بمجرد اتخاذه القرار بالدخول في الإسلام، فلقد منحه القرار شعورا قويا بالحرية، بعد

فترة طويلة من القيد، دفعه إلى البدء في تقديم خدمة للإسلام على الفور، وحتى قبل أن يقابل الرسول ﷺ، وهو ما يعكس إصراره على ذلك، بعد فشل محاولته مع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، إلى أن نجحت محاولته مع عثمان بن طلحة ثم عمرو بن العاص.

- ما حدث لخالد بن الوليد يشبه ما يحدث للتائب بعد المعصية، فهو يشعر بارتفاع شديد في روحه المعنوية، ويشعر أنه قد خرج من سجن المعصية إلى حرية الطاعة (وليس العكس)، ويدفعه الحماس بعدها إلى الاستزادة من الطاعات والتقرب إلى الله.

إنها فرحة الحرية.. حرية الطاعة، وحرية العبودية لله.

٣- الحق أقوى من الذكاء والدهاء والعدة والعتاد (عمرو بن العاص يذهب إلى النجاشي لاجئا فيجده قد أسلم).

من عجائب القدر، ما حدث لعمرو بن العاص، فلقد ذهب لاجئا إلى نفس المكان الذي ذهب إليه المسلمون من قبل لاجئين عند النجاشي، بعد الاضطهاد الشديد لهم في مكة، ورغم ضعف المسلمين وقوة علاقة عمرو بالنجاشي وعلاقات قريش التجارية مع الحبشة، إلا أن الحق كان أقوى من كل ذلك، ليعود عمرو إلى قريش بعد أن فشل في مهمته.

و للمرة الثانية يعود عمروالى النجاشي لاجئا إليه ليفاجأ بإسلامه، فيخرج منها مهزوما عائدا إلى مكة، ليفاجأ بإسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة !!

لقد ظل الحق يطارد عمرو بن العاص سنوات، حتى استسلم له تماما في السنة السابعة للهجرة.

إن الحق غالب.. مهما طال الزمن، ومهما كانت قوة من يقف أمامه، فلن يستطيع أن يقف أمام قوة مستمدة من الله عز وجل.

٤- تصعب القيادة عندما يكثر عدد الموهوبين المميزين بين الجنود، وعند دخول موهبة جديدة ينبغى التريث فى إعطائها الفرصة المناسبة حتى لا يسبب إعطائها الفرصة، حساسية لدى الآخرين نتيجة للشعور بتخطيهم (الرسول ﷺ لم يسلم خالد بن الوليد قيادة عسكرية بمجرد دخوله الإسلام) .

رغم موهبة خالد العسكرية الفذة التى لا يستطيع أن ينكرها أحد، فإن الرسول ﷺ لم يبادر بتسليم القيادة لخالد بن الوليد في غزوة مؤتة، رغم إدراك الرسول ﷺ لصعوبة المهمة وخطورتها.. وذلك لسببين:

- خبرة زيد وجعفر وابن رواحة بالجيش الإسلامى والتعامل مع جنوده، أكثر من خبرة خالد بن الوليد الذي لم يلبث في المدينة إلا شهورا، وبالتالي كانت الأمور ستسير بصورة أقل سلاسة في السمع والطاعة إذا ما تم تسليم القيادة لخالد.

- تسلم خالد القيادة في غزوة مؤتة رغم حداثة إسلامه متخطيا شخصيات عسكرية أخرى سبقته

للإسلام من المهاجرين والأنصار، ربما كان سيتسبب في الشعور ببعض الحساسية لدى المسلمين، وربما يكون هناك تساؤلات عن الفترة التى مكثها خالد مع المسلمين والتى كانت ثلاثة شهور تقريبا، وهل كانت هذه الفترة كافية للتعايش مع المسلمين لتولي قيادتهم في معركة صعبة كمؤتة، مما كان سيؤثر في قبول أوامر خالد نفسه، وبالتالي في نتيجة المعركة.

وما حدث بعد ذلك من اختيار خالد المسئولية بعد استشهاد زيد وجعفر وابن رواحة، كان اختيارا أثناء المعركة وفي موقف في غاية الخطورة، لم يكن ليدع فرصة للتفكير في مثل هذه الأمور، فساعة الخطر.. لا يملك الجميع إلا أن يفكر في الشخص القادر على تخطى الأزمة وتحقيق النجاة بغض النظر عن الشخصية، وكان لهذا الشعور أثر كبير في نجاح قيادة خالد وسهولة قيادته في معركة مؤتة.. والمعارك المقبلة.

٥- الحرص على مبدأ الشورى في أحلك الظروف وأصعب المواقف (المسلمون يطبقون مبدأ الشورى في تولي خالد القيادة في أثناء المعركة) .

ربى الرسول ﷺ أصحابه على مبدأ الشورى حتى وإن كانت في أحلك الظروف، ولذلك كان المسلمون يطبقونها عن اقتناع كامل بأهميتها القصوى في اتخاذ القرار الصائب الذي يرضى الجميع، حتى يكونوا قادرين على تنفيذه بروح عالية، بل إنهم يرون أن الشورى في الإسلام نوعا من التعبد؛ لأنها تنفيذ لأمر الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، ورغم خطورة الموقف في معركة مؤتة، ورغم أن المعركة كانت دائرة بالفعل، لم يتنازل الصحابة عن مبدأ الشورى في اختيار خالد بن الوليد، حتى وإن كان بسرعة، في حدود الوقت الذي سمحت به المعركة.

إن الشورى واحترام رأي المسلمين، كان من أقوى الأسباب التى دفعت الجميع لتقديم كل ما يستطيعه لخدمة الإسلام، فالجميع يشعرون بأنهم بناؤون في بناء واحد، كل منهم يساهم فيه، في تعاون.. وحب.. وتضحية.

٦- جزء كبير من عبقرية خالد العسكرية، كانت في قدرته على التعامل النفسى مع جنوده وأعدائه (خالد يراعي التأثير النفسي على الجنود والأعداء في معاركه كمؤتة واليمامة واليرموك وغيرها) .

نظرية التأثيرات النفسية في الحروب أصبحت نظرية أساسية في الحروب الحديثة، استخدمها نابليون وهتلر من قبل في حروبهما، وفي وقتنا هذا.. أصبحت وسائل الإعلام أداة جبارة في يد أصحاب القرار، للتأثير النفسي على الجنود والشعوب بما تبثه من صور وأحاديث وأفلام.

نظرية التأثير النفسى.. بدأها الرسول ﷺ ببث الروح القتالية في المسلمين بدافع الإيمان بالله ونيل الشهادة والفوز بالجنة، وهو ما جعل الجيوش المضادة للمسلمين تذهل من قدرة المسلمين الغريبة على الصمود والهجوم، رغم قلة عددهم.

رفع الحالة المعنوية للجنود وإحباط معسكر العدوأسلوب أتقنه خالد بن الوليد في

ثلاث معارك:

الأولى في غزوة مؤتة.. عندما وضع خطة لإيهام الروم بأن هناك مددا لجيش المسلمين، مما أحبط الروم لفترة من الوقت، كانت كافية تماما لتنفيذ أفضل خطة انسحاب في التاريخ العسكري القديم والحديث.

الثانية في معركة اليمامة.. عندما شعر بخطورة الموقف وتفوق جيش مسيلمة الكذاب، فقام بتصنيف الجيش إلى مهاجرين وأنصار، حتى يشعل المنافسة بينهم ويرفع الهمم، وكان لهذا التقسيم أثره في أن خاف كل فريق من أن تأتي الهزيمة من قبله، فكان لهذه الفكرة الذكية أثرها الفعال في انتصار المسلمين .

والثالثة في معركة اليرموك.. عندما أمره أبو بكر بالتوجه إلى الروم لقتالهم بعد أن انتهى من الانتصار على الفرس ، وكانت المشكلة التى واجهت خالد..هى أن جيش المسلمين تحت قيادة فعلية لعدد من خيرة الصحابة، وأدرك خالد أن تولي القيادة المباشرة بهذه الطريقة، قد تسبب ضيقا عند هؤلاء القادة، فقام احتراما لهم بتوزيع القيادة بينهم يوما بعد يوم، مما كان له أثره الفعال في الحفاظ على وحدة الجيش وانتصار المسلمين.

إن العامل النفسى عامل خطير جدا في تعامل القائد مع جنوده في الحرب، أوأي مؤسسة اجتماعية أو اقتصادية، وبدون مراعاته يتعرض العمل أيا كان.. للفشل لا محالة.

٧- التنازل عن السلطة والرأى فى سبيل الله والمصلحة العامة..صفة يحتاج إليها مجتمعنا بشدة (خالد بن الوليد تنازل عن القيادة لأبي عبيدة دون إثارة أي مشكلات).

السلطة شهوة.. وحب الرأي شهوة، وعندما تتمكن شهوة السلطة والرأي من الأفراد، يضيع المجتمع ويفسد ويتناحر وينهار، ولكن عندما تكون السلطة وسيلة لإرضاء الله، ويكون الرأي وسيلة للفوز بحبه، يصبح التنازل عن الرأي سهلا وبسيطا إذا ما وجد أن هذا سيحقق المصلحة العامة ويحقن الخلافات ويطفئ نار الضغينة في النفوس.

إن التنازل عن الرأي عند الضرورة مهارة حوارية، يجب أن يتعلمها الشباب.. لنفع أنفسهم والمجتمع.

٨- ربما ندعى حب الإسلام، ولكننا عند المواجهة نكتشف أننا نحب أنفسنا أكثر (خالد بن الوليد تنازل عن القيادة لأبي عبيدة من أجل المصلحة العامة) .

إننا نتغنى كثيرا بحب الإسلام، لكن الكثير من المواقف يكشف أننا نحب أنفسنا أكثر من الإسلام، فهذه المواقف تثبت أننا لا نقبل أن نتنازل عن حبنا للقيادة والزعامة وحب الظهور من أجل المصلحة العامة، وربما نتمسك بوجهة نظرنا الخاطئة -رغم علمنا بأنها خاطئة- كبرا وعنادا، وربما لا نسمح بقيادات أكثر كفاءة منا أن تبرز وتتولى؛ لأننا نغار منها أو لأنها ستسحب البساط من

تحت أرجلنا، وربما لا ننسحب من أماكننا ونتشبث بها رغم علمنا يقينا أننا فشلنا في مهمتنا، وأننا غير قادرين على فعل شيء أو تقديم جديد، وربما نكره نجاح الآخرين فنبالغ في انتقادهم انتقادات غير منطقية وغير مبررة، ونفرح بداخلنا إذا ما صادفتهم المشكلات، ونصدق عليهم إشاعات غير منطقية؛ لأننا نريد أن نصدقها، ثم نتطوع بترويجها، وربما نفعل كل ذلك ونحن نقنع أنفسنا أننا نفعل ذلك حبا في الإسلام وخوفا عليه.. والحقيقة التى نعرفها جيدا، أننا نفعل ذلك حبا في أنفسنا وخوفا على مناصبنا ومكانتنا، وعدم رغبتنا في نجاح شخصيات بعينها.

إن أخطر ما يواجه أي مؤسسة أيا كانت، أن يوضع الشخص في غير مكانه، وأن يوسد الأمر إلي غير أهله، وأن تهمش الكفاءات، ويمكن أصحاب الكلام، لا العمل والجهد والكفاءة، وفي البلاد التى نصفها بالكفر والزندقة وحب الشهوات، يحترم المجتهدون والمخلصون ويكافؤوا بوضعهم في مكانهم الصحيح ! وفي بلادنا يحدث العكس.. لذا يطاردنا الفشل في كل مكان، وسيظل يطاردنا حتى نواجه أنفسنا.. ونجاهدها.. ونهزمها.

٩- الحرص على الأخوة أولوية مهمة وخطيرة في حياة المسلمين (أبو عبيدة يحرص على تبليغ «خالد » قرار العزل بنفسه بلطف وأدب، مراعاة لشعوره).

استمد المسلمون قوتهم بقوة عقيدتهم وقوة أخوتهم قبل قوة سلاحهم، والذي كان أضعف بكثير - حسب المقاييس المادية- من قوة أعدائهم، لذلك.. كان حرص « أبي عبيدة» الشديد ألا يفسد قرار عمر بن الخطاب بعزله وتوليته مكانه- العلاقة الأخوية بينهما، وهى أولى وأهم من السلطة عند كليهما، فحرص أبو عبيدة أن يبلغه الخبر بنفسه، حتى يخبره برفق دون أن يؤلمه، وكم كان خالد رائعا حين تقبل الأمر بصدر رحب، ولم تتحرك في نفسه الضغينة لأخيه.

إن الخلافات بيننا لابد أن تحسم بسرعة، وأن يحاول كل طرف من المتخالفين إنهاء الموقف، والاستعداد للتسامح والاعتذار، وقبول الاعتذار من الطرف المعتذر، وتفضيل المحبة والأخوة على أي شيء من متع الدنيا..وشهواتها.

١٠- رسالة حضارة الإسلام جوهرها أخلاقى، وما عداها من حضارات جوهرها المادة، ولذا فهى لا تهتم لا بالأخلاق ولا بالإنسان (خالد بن الوليد يصدر أوامره للجنود :« لا تتعرضوا للفلاحين بسوء، دعوهم في شغلهم آمنين، إلا أن يخرج بعضهم لقتالكم، فآنئذ قاتلوا المقاتلين»).

دافع الإسلام عن حق الإنسان حتى وهو يحاربه، فوضع قواعد أخلاقية صارمة في الحرب سواء مع المحاربين أوالأسرى أوالمدنيين، وكان القائد هوالذي يحاسب الجنود على ذلك دون انتظار لمحاسبة من المجتمع الدولي، إنها حضارة تريد الرحمة بالإنسانية حتى وهى تحاربهم، حضارة لم تكن يوما متعطشة لدم إنسان أو تسعى لقتل مخالفيها تشفيا فيهم ورغبة في تفريغ شحنات الكره والغضب.

هذه الحضارة..هي نفس الحضارة التي يتهمها الغرب الآن بأنها دموية، مستغلين آلتهم الإعلامية الجبارة في تسليط الضوء على حوادث معينة.. وهم.. ومن وراء الجميع.. يرتكبون أفظع الجرائم في الحروب والسجون والمعتقلات، إضافة إلى نهب الثروات وتزييف التاريخ وطمس الهوية.. ويحدث هذا رغم وجود ترسانة قوانين وحزمة محاكم ، لا تستطيع أن تطبق قوانينها إلا على الضعفاء.

إن عظمة الإسلام تكمن في أنه يدعوالناس رحمة بهم لا طمعا فيما عندهم، وعندما تضطره الظروف إلى الحرب، فإنها تكون من أجل إرساء قيم عليا يدافع عنها،ولا سبيل لتحقيقها إلا بالجهاد، وفي كل الأحوال والظروف.. لابد وأن تكون راية الأخلاق والحق والإخلاص فوق الجميع.

١١- المرأة في العصر الإسلامى طرقت كل الأبواب حتى ميدان الجهاد (خالد بن الوليد يسلم النساء في اليرموك سيوفا ويأمرهم بمراقبة الهاربين) .

ليس من مصلحة الإسلام أن تعزل المرأة عن المجتمع، كما أنه ليس من مصلحة المجتمع ألا يهتم بالمرأة اهتماما حقيقيا يستغل ذكائها ومواهبها وطاقتها في خدمته، على أن يكون هذا الاستغلال حقيقيا لا مظهريا، يحسن فيه توجيه المرأة توجيها صحيحا، تؤدي فيه دورا جادا فعالا بعيدا عن نظريات التنافس مع الرجل والوقوف أمامه موقف الندية.

وللأسف.. لا زالت نظرة المجتمع العربي للمرأة أنها إنسان لم يكتمل بعد، ولا يعرف على وجه التحديد متى يكتمل، وأنه لا ينبغى أن نرعى الفتاة كما نرعى الشاب، والنتيجة أن تجد الفتاة نفسها عند البلوغ بلا هوية ولا هدف، مسطحة الفكر وضعيفة التفكير، تنحصر كل أهدافها مهما - كان مستواها العلمى - في الحصول على زوج، دون أي خلفيات ثقافية للزواج أو أهداف مستقبلية منه، ودون أن تتمكن من تبني أي رسالة في بناء الأسرة وتربية الأولاد وخدمة المجتمع والعمل للإسلام.

إننا بهذه النظرة الدونية للمرأة، نفرغ المرأة من إنسانيتها ونجعلها نهبا للأفكار التافهة، التى أقنعت الملايين أن المرأة لا تساوي إلا الجسد، أما العقل والفكر والقدرات والطموح.. فهي مسائل مؤجلة الآن.. وحتى إشعار آخر.

١٢- لا أحد كبير على الفتنة، وينبغى الإكثار من الدعاء على الثبات (خالد بن الوليد يتوقع هروب بعض المسلمين في معركة اليرموك) .

مهما بلغت قوة الإيمان وطول مدة صاحبها عليه، فلابد أن يعى المسلم بأن نفسه بين إصبعى الرحمن، يقلبها كيف يشاء، وقدوتنا في ذلك رسولنا الكريم وأفضل الخلق أجمعين ﷺ، والذي كان يستعيذ بالله في اليوم مرتين على الأقل من الكفر !! في دعائه نصف اليومي: « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر » .

إن الفتنة إنما سميت فتنة؛ لأنها تربك الأعصاب، وتصيب صاحبها بالتوتر البالغ الذي يدفعه

إلى عدم القدرة على التصرف المنطقي، وعادة ما يكون الموقف أكبر من أن يترك للعقل فرصة للتفكير السليم، ليبدأ بعدها من أصابته الفتنة في التنازل عن أشياء لم يكن ليسمح لنفسه أبدا بالتنازل عنها يوما، ويظل يقنع نفسه بأمور، كان من قبل من أشد المخالفين لها.

إن القلب في هذه الحالة وكأنما يتزحزح من مكانه، ويبدوالعقل وكأنه مغيب أو عاجز عن التفكير أوالسيطرة، فيدفع بالإنسان إلى طريق مجهول لا يعرف ملامحه ولا خطورته.

لا أحد كبير على الفتنة، وستظل حياتنا كلها مهددة بها في أي لحظة، ولن ينجينا منها إلا دعاء صادق بين الحين والحين.. أن يقينا الله شرها، وأن يثبتنا على ديننا إلى أن نلقاه.. وهوأرحم الراحمين.

١٣- الإيثار يحمي المجتمع وقت الشدة، وغيابه في الظروف الصعبة يؤدي إلى التناحر والتقاتل (موقف الجنود الذين ماتوا من العطش؛ لأن كل واحد منهم آثر أخيه في شرب الماء) .

الإيثار من الأخلاق العظيمة في الإسلام، فهي قيمة تدعوالمسلم إلى التفكير في غيره قبل أن يفكر في نفسه، ويظهر أثر هذه القيمة بقوة في وقت الشدائد، ووجودها في المجتمعات الفقيرة يضمن عدم التناحر والتقاتل، وغيابها يؤدي إلى انتشار مشاعر الحقد والكراهية بين الناس وهو ما يؤدي بدوره إلى ارتكاب الجرائم.

إن الإسلام يضع قواعد أخلاقية تحمي المجتمع من الانهيار في أحلك الظروف، ويقرن ذلك كله بطاعة الله وتحصيل الثواب والفوز بالجنة.

١٤- هداية البشر هي رسالة المسلمين الأولى، وما الحرب إلا وسيلة (مكروهة) من وسائل الدعوة، ونفسية المسلم نفسية خيرة، تحب الناس ولا تبغي عداوة أحد (خالد بن الوليد يحاور جرجة أحد قادة الروم أثناء الحرب ويقنعه بالإسلام) .

انتصار المسلمين في ميدان الدعوة إلى الله، يفوق بمراحل انتصارهم في الحرب على أعدائهم، وفرحة المسلمين في البناء أشد بمئات المرات من فرحة نجاحهم في تدمير أعدائهم. هذا الفكر هوالذي جعل « خالد بن الوليد » يحاور جرجة أحد قادة الروم، ويجتهد في إقناعه بالإسلام حتى نجح في ذلك.

إن نفسية المسلم نفسية خيرة تحب الناس ولا تتخذ أحدا عدوا لها، إلا إذا وجدته مصرا على العداء لا محالة، وعندما تلمح منه مجرد رغبة في التراجع عن العداء، تسارع بمد يد المساعدة إليه ليمدا معا جسور المحبة بينها.

إن عقيدة الإسلام ليست عقيدة هدم وتدمير،إنما هي عقيدة بناء.

علينا أن نفرح بالبناء والتعاون والتكامل،لا بالتدمير والتباعد والتناحر.

١٥- الدعوة من منطلق قوة، أنجح بمراحل من الدعوة من منطلق ضعف (انبهار جرجة بخالد بن الوليد، كان سببا في اقتناعه بالإسلام).

إننا – نحن المسلمين – قد نكون عقبة كبيرة في سبيل وصول الإسلام لغيرنا، أو على الأقل التزام غيرنا بالإسلام، فبتصرفاتنا السلبية ومعاصينا وبتخلفنا وقصورنا في شتى مجالات الحياة، نجعل الآخرين يرون صورة الإسلام السلبية فينا، ولا يجدون داعيا لأن يلتزموا بالإسلام أو يؤمنوا به؛ لأنهم يربطون تلقائيا بين فشلنا ومنهج الإسلام، وبين تخلفنا المذهل وبين تطبيق المنهج الإسلامي.

وعندما نفكر أن ندعو إلى الإسلام في ظل هذا الموقف المخزي، لا نستطيع أن نتقي السهام المصوبة إلينا ممن ندعوهم، ولن نستطيع أن نحمي أنفسنا من الخجل الذي سيضرب بحمرته في وجوهنا، عندما يسألوننا عما فعل الإسلام في حياتنا، وما هو سر ما نعانيه من انهيار في كل المجالات، رغم حديثنا عن عظمة الإسلام في كل المجالات.

لابد أن نكون أقوياء في مجالات الحياة التي نعيشها كل يوم وكل لحظة، حتى نكون سفراء جيدين للإسلام عند غيرنا – مسلمين أو غير مسلمين – وعندها.. ستتحدث عنا الأعمال خير حديث، ولن نحتاج كثيرا إلى الكلام.

١٦- من رحمة الله بنا أنه أخفى علينا موعد مفارقة الحياة وجعل العبرة بخواتيم الأعمال (القائد جرجة يدخل الجنة شهيدا وقد أمضى حياته كلها كافرا و لم يصل إلا ركعتين بعد إسلامه).

هل تعتقد أنه من الرحمة أن يبلغنا الله الآن بأننا جميعا قد دخلنا الجنة ؟ وماذا تتوقع تصرفنا بعدها ؟

هل سنترك تعاليم الإسلام، مطمئنين إلى أننا فزنا بالجنة ؟ ولو فعلنا ذلك، هل نضمن أن نعيش حياتنا في سعادة ؟

إن من رحمة الله بنا أن جعلنا دائما في اختبار دائم، والعلم بميعاد الموت، ومع وجود قانون التوبة، يعني القضاء على فكرة العبودية عمليا، فالجميع سيرتكن إلى التوبة قبل موعد الوفاة بقليل، كما يذاكر الطالب قبل موعد امتحانه بشهر، بعد أن ظل مستهترا طوال العام.

في نفس الوقت، فإن قانون العبرة بخواتيم الأعمال، يعطي للجميع الأمل في التوبة، مهما كبر سنه، ومهما بلغت ذنوبه، ويفتح له باب الرجوع إلى الله، حتى وإن كان قبل موته بساعات.

١٧- فلسفة الإسلام تقوم على وضع المسلم دائما في حالة اختبار لتحميه من التكاسل (لماذا أعمال الناس بالخواتيم؟ أعمال جرجة حسبت بخاتمته).

جعل الله أعمال المسلم بخواتيمها حتى يظل المسلم في حالة اختبار مستمرة وحالة تخوف دائمة

من الموت ساعة المعصية، وهو نفس الدافع الذي يدفعه إلى التوبة بسرعة إذا ما وقع في الخطأ، فهو يسرع بالتوبة حتى لا تصبح نهاية حياته معصيته، وهذا الأسلوب يجعل المسلم في حالة ترقب دائمة لأعماله فتنحصر المعصية إلى أبعد حد ممكن.

وقد يتساءل البعض: كيف سيظل المسلم مطيعا طول حياته ثم يقبض الله روحه عند ارتكابه معصية ما رغم ندرتها ؟

أقول: إن هذا لن يحدث -إن شاء الله- طالما كان المسلم صادقا مع ربه، حريصا على طاعته، فلن يأخذه الله وقت زلته وهوالذي يغفر الزلات مهما كانت، ولن يموت على المعصية إلا من دأب عليها وأدمنها وقطع طريق التوبة على نفسه، فأصر على المعصية إصرار من يريد أن يأخذه الله بذنبه.

* * *